كبيرة من النصارى أهل شنترين[1] أعادها الله وهزموهم وغنموهم واستأصلوهم قتلاً وسبياً ، فكان ذلك عنوان الفتح لما يذكر بعد في هذه الغزوة . ثم أبا سعيد وأبا عبد الله خرجوا من إشبيلية بالعسكر الميمون الى مدينة غرناطة لدفع المحاربين الأشقياء عن جهاتها وحماية صيفتها فعند خروجهم من قرطبة الى جهاتها التقوا على غير ميعاد ولا معرفة بعسكر مجتمع معد من عسكر ابن مردنيش بحصن لك[2] ، فكانت بينهم مدافعات عميمة، وكرات في معركة من الحرب عظيمة ، ظهر فيها من إقدام أبي عبد الله بن يوسف ومن أعيان العرب وسائر العسكر ومن صبرهم ودفاعهم وقراعهم [122] ما لم يظهر مثله إلا في زمان الأبرار ، المجاهدين الأخيار، تواصلت الحرب بينهم طولَ يوم على شُرب الماء في وادي[3] لك المذكور ، وانفضت الحرب عن ظهورهم وثباتٍ من الموحدين وحيرة من المنافقين واستغراب منهم ، كيْفَ يوجد مثل هؤلاء في الموحدين ، فوصل كتاب أبي سعيد يخلف بن الحسين وابي عبد الله بن يوسف الى الأمير بمراكش مستغيثين معرّفين بهيئة حربهم ، وموافقتهم في طعنهم وضربهم ، وذلك في أول يومٍ من شهر رمضان المعظم من عام ستين وخمس مائة السيد الأعلى أبو حفص رضي الله عنه لله غيرة عظيمة ، وعسكر في يومه ، وأمر بالنفير اليهم والإسراع بالموحدين من الصابرين ، ونخبة الفرسان الأبطال من العرب الرياحيين والأثبجيين[4] والرغبين ورجالهم والنفوذ لديهم وخرج من الحضرة في العشر الأول من شهر رمضان المعظم

(1) شنترين (Santaren)، تقع شمال لشبونة، على جبل شاهق بينها وبين بطليوس كما يقول الحميري اربع مراحل
الروض المعطار ص 113 - 114
(2) حصن لك (El castillo luque) يقع جنوب غرناطة على مقربة منها.
ويسي ص 225
(3) الذي تقدم هو حصن لك ولعل به وادياً يحمل أيضاً اسم وادي لك
(4) يعتبر الاثبج من الهلاليين ولكنهم أوفر عدداً وأكثر بطوناً وكان منهم المقدم، والعاصم ابنا مشرف بن اثبج بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر والموحدون هم الذين نقلوهم من افريقية إلى المغرب
ابن خلدون المجلد السادس ص 48 فما بعدها

المؤرخ بالعالم المذكور ، وخرج معه أخوه أبو سعيد عثمان وهي غزوته الأولى إلى ابن مردنيش السعيدة الفاتحة للموحدين أعانهم في عدوهم فأزعج السير حتى أجاز البحر ووصل مدينة إشبيلية بجمعه الطاهر ، واجتمع بالموحدين المذكورين بها وتذاكروا في الرأي ، واتّفقوا وتشاوروا ووقفوا وخرجوا من إشبيلية غازين عازمين مصممين الى بلاد ابن مردنيش في أول ذي[1] القعدة من عام ستين [123] المؤرِّخ ، فأول مدينة نازلوها له مدينة (أندوجر)[2] لقربها من قرطبة وأنها شجى في حلقها ومشتركة في تربها ، إذ هي من بسائطها ومحارثها . وموضع مستغاثها من المرافق في قديمها وحديثها ، ففتحوها في يوم نزولهم في ساعة قتالها ونزالها عنوة ، وبادر أصل الحصون المجاورون بدخولهم في التوحيد ، القريب منها والبعيد ، وشن العسكر المنصور بأمر الأمير السيد الأعلى خَيلَه بالغارة على نواحيها فاستاقت المغانم على القرب والبعد ، وامتلأت أيدي الموحدين أعزهم الله من السبي والفيء وازداد نعماً الى نعمهم ، وشفيت قلوبُهم من وجدها وأجسامهم وهُم بالجميع من ألمهم وتيقنوا ان ذمة الله موصولة بذممهم . وأنعم السيد الأعلى ـ أعلى الله أمره، وخلد في الدهور فخره ـ عند كمال هذا الفتح الميسر على الموحدين أعانهم الله براد وبركة زادها لهم أحساباً منه وانصافاً ، فتألفوا في المواخاة على ما كانوا عليه أضعافاً، واستعدوا بعدة القلوب للحروب، وهي العدد آلافاً ، ونهض السيد رضي الله عنه في هذه الغزوة السعيدة النُّهوض الذي لم يتقدم لغيره في هذا الأمر ، ولا سبقه سابقٌ في قديم الزمان من العُمْر فإنه نهض بنيةٍ لله صافية وعساكر بالنصر ضافية ، وأجناد من الله معه متلاقية ، ولما كان الفراغ من شغل فتح أندوجر [124] المذكورة وثقف من وجب تثقيفه ، وسبي من سبى وتحكمت في ذلك رماحه وسيوفه ، واصطفى فيها من

(1) موافق 8 شتنبر 1165 - 226 :Huici
(2) أندوجر (Andujar) بلدة من مقاطعة جيان وتقع شمال شرقي قرطبة، مشيدة بشط الوادي الكبير يعبر لها على قنطرة في غاية العلو.
الغزال، نتيجة الاجتهاد ص 40 - 41

رآه ، واستحسن مراءه ، أقلع منها قاصداً بلاد ابن مردنيش المذكورة وَالنَّصر بين يديه قديماً ، والظفر معه أينما حل ظاعناً ومقيماً ، وتسامع ابن مردنيش أن العزم اليه ، على ما نوى عليه ، فاحتشد جميع أهل شرق الأندلس ومن اليه تحت عطاء ورزق ! وشعبته من معتق ورق ! واستدّعى أحلافه النصارى من طليطلة وأنظارها، والعُصاة والحُماة من أقطارها ، فوصلوا اليه بجمع كبير ذميم حقير عند الله ، فرّار عن الحق مهزوم معاند لأمر الله عن العصيان فاجتمع له جمْع ، وطرقَ لهم من الشيطان سمْع ، تسابقوا لاجابته ، وحماية غوايته ، فخرج بهم من مرسية مقره واعترض الموحدين أعانهم الله وهم بمدينة لورقة[1] وأقبل بجمعه اليهم وحبّس مضيقاً في الطريق عليهم لا يمكنهم الجواز فيه إلا بعد مقارعة ، فعدل الموحدون أيدهم الله عن ذلك المضيق الى الفحص المعروف بالقندون[2] في أوسع طريق وأيمن فريق وأتوا لورقة من غربها ، والشقي بعسكره بقربها ، ثم أنهم أقلعوا من منزلهم المبارك من نحوها ، وتوجُّهوا على طريقهم قاصدين مرسية ، فاقلع ابن مردنيش من موضعه بجمعه وتماشياً يومهم ذلك ، عسكر الموحدين أيدهم الله في جانب الجبل على ميمنة [125] الطريق ، وعسكر ابن مردنيش على يسرة الطريق في الجبل الآخر داما على ذلك في يومهم كله . فلما كان يوم الجمعة السابع من ذي الحجة من العام المؤرخ عام ستين وخمس مائة ، ووصلوا الفحص في وقت الزوال من شمس النهار المذكور أول فحص مرسية في الموضع المعروف بحامة بلقواد[3] ، وفحص الجلاب[4] على عشرة أميال من مرسية ،

(1) لورقة (Lorca) تقع جنوب مرسية بها يوجد فحص القندون تحط بها بعض القرى لكن أهمها قرية (تازه) الحميري : الروض المعطار صفحة 171 - 172
(2) القندون، يقع شرقي مدينة لورقة، جنوب قرطاجنة. هذا وقد أعطاها ويسي نفس الاسم (Al Fundum) الادريسي : نزهة المشتاق ص 194 ، ويسي : الخريطة بين صفحة 228 - 229 .
(3) كذا في الأصل : حامه بلقواد أو بلقوار، ويظهر من ابن صاحب الصلاة انه اسم ثان لفحص مرسية الذي يحمل أيضاً اسم فحص الجلاب، وقد تجنب ابن عذاري الاسمين معاً واكتفى بالقول بانهم ووصلوا أول فحص مرسية على عشرة أميال منها .
(4) راجع في هذه الموقعة الحلة السيراء ص 230 والدكتور أشباخ، تاريخ الأندلس ترجمة عبد الله عنان ص 319.

ألح عسكر ابن مردنيش بالدفاع وطلب ، فعبّى صفوفاً ، وتميزوا أجناساً وصنوفاً ، وتميزوا[1] بكلّ قبيل من طوائف الموحدين الصابرين الصادقين ، أهل هرغة[2] ، وأهل تينملل ، وهنتاتة[3] ، وقدميوه[4] ، وجنفيسة[5] وجميع القبائل على مراتبهم ، ومن قبائل العرب الهلاليين والرياحيين والجشميين والزغبيين ، وجميع العبيد للأمر العالي المرتسمين ، وتيسروا للُقاء ، وتعاهدوا على الثبات والصبر في إقامة طاعة الله تعالى ودفاع اعدائه ، ودخول الجنة بذلك على طول البقاء . فدفع ابن مردنيش بعسكره فيهم بأصحابه النصارى أولاً ثلاث دفعات : أولى في العرب واثنين في الموحدين ، فانجد الله المؤمنين في ذلك وثبتهم ، وقوّى قلوبهم وعزمتهم ، فعظم بينهم عظام القتام ورجع شمس النهار في نهاية الظلام وترادف بالأظلام ، وتماشت الركب بالركب ، وعظم الطعن بالرماح [126] المداعس ؟ والضرب بالسيوف القضب المشارف المجرَّبة عند العرب ، الى أن فتح الله للمسلمين ، وولى الكفرة أدبارهم ، وكان بعون الله تعالى أدبارهم ، ومحا الله تعالى بسيفه آثارهم ، وقتلوا قتلاً ذريعاً ، وخر أكثرهم صريعاً ، وفر ابنُ مردنيش مهزوماً قد عاين مصارع أصحابه وأحزابه الكفرة جميعاً ، واستند إلى جبل قريب من المعركة ضرب فيه قبة خباء على معنى خدعة الحرب أقام مع فله المهزوم ، في ذلك ساعة من بقية اليوم ، إلى أن ستره الليل ، وقد أحدق به الثكل

(1) جرت عادة الموحدين على «تمييز» الجيش عند كل مناسبة حتى يعرف كل قبيل وضعه، وهكذا فأهل المغرب بقبائلهم على حدة وقبائل العرب كذلك، والموالي بدورهم يميزون السنق، أخبار المهدي ص 245 وص 53 (الترجمة)، راجع ص 295 وما بعدها من كتاب الى بالإمامة . .
(2) هرغة : تقع شرقي مدينة تارودانت بين السوس الأدنى والسوس الأقصى (أنظر خريطة بروفنصال في أخبار المهدي)
(3) هنتاته : تقع جنوب مدينة مراكش بين حصن كيك ومدينة تينملل (أنظر أخبار المهدي)
(4) قدميوه أو جدميوه : تقع غربي هنتاته وتينملل .
(5) تقع قبيلة جنفيسة جنوب جدميوه، وتعتبر الطبقة العاشرة من أصحاب المهدي . راجع التعليق رقم 5 ص 68

والويل ، وركب في حينه وفرّ الى مرسية وانحجرَ فيها مهزوماً ، مغلولاً ذليلاً ملوماً ، ثم إن الموحدين أيدهم الله أقلعوا في بكرة غدهم من ليلة مبيتهم بموضع المعركة الى مرسية في أتباعه ، فنزلوا بساحتها ، وأقاموا فيها وعيّدوا عيد الأضحى بأباطحها وموضع راحتها ، من مقره ، في دار ممره ، على مرأىً منهم بظاهر مرسية المذكورة في تخريب بساتينه ، وإباحة الخطوب في مواضع منتزهاته من راحه ورياحينه ، وتتبعوا تلك الأسقاع، بالتدمير في تدميره، والغارة على جنباتها بالاتساع، فاستاقوا نعم أهلها وتحكّموا فيما أملوه بالتطاول في سهلها وجبلها مدة أيام كثيرة بالأمن لهم في الإقامة، والتعقيب بالغارات في كلِّ نظر واستجلاب المغانم على [127] أوفى السلامة، وانتهوا من الانتهاب إلى أقصى غاية، وبما زاد على الأمل والنّهاية، وخاطبوا من مضرب محلتهم بظاهر مرسية للخليفة الرضى أبي يعقوب رضي الله عنه بوصف الفتح العظيم ، ونيل النجح الجسيم ، وشرح الحال ، فوردت البشرى بحضرة مراكش أدام الله حراستها صبيحة يوم الأحد الثالث والعشرين من ذي الحجة من عام ستين المؤرخ ، على تاريخ ستة عشر يوماً من ظاهر مرسية الى مراكش ، وهذا غاية السير .

(وصول خبر الانتصار على ابن مردنيش لمراكش)

ومن عجائب الفال ، قال المؤلف : كنت صبيحة يوم الأحد الذي وصلت فيه هذه البشرى الفاتحة قد بكّرت على العادة الى « منيقمّي »(1) دار الخليفة رضي الله عنه جالساً مع طلبة الحضر وأشياخ أهل الأندلس نتطلع

(1) لم يكن ابن صاحب الصلاة كالبيذق الذي استهلك في «أخبار المهدي» الكلمات البربرية بكثرة، ولكنه استعملها قليلاً في بعض الأحيان ولفظ «منيقمي» أصله «أمي نتكمي» Emm - Tgemmi ومعناه باب الدار، والقصد في الكتاب إلى «السقائف» كما يشرحه هو نفسه بنفسه ص 281 ورقة 141 وإذا ما رجعنا لما حكاه ابن سعيد عن مباني مراكش على عهد الموحدين نجد أن باب الاسطوان أو باب السقائف منه كان الخليفة يخرج إلى سقائف أهل الجماعة وهي درية العشرة، وإلى سقائف أهل الخمسين وسقائف الطلبة وسقائف الحفاظ وسقائف أهل الدار الخ . البيذق :

الأخبار وقد بعد زمانها وتوقف الواصلين بها ، إذ رأيت قطّاً على سقف دار الخليفة يمشي وفي فمه فرخ حمام قد افترسه فقلت لمن كان معي من أشياخ أهل الأندلس : الله أكبر ! هُزم والله ابنُ مردنيش ! فقالوا لي : بم تقول هذا؟ فقلت لهم : هذا القطّ شبه الأسد والأسد عدوي(1) ! والحمام عجمي ! فقد غلبت الموحدين العجم ، وافترسوهم كافتراس هذا القط الفرخ ! فما كان مقدار ما أكملنا الكلام في هذا الفال ، ودخل الفرسان الواصلون بالبُشْرَى في الحين بخيلهم في « مُنْيِقِمّي » [128] وبأيديهم علامات(2) ابن مردنيش مستورة ، على غير علم ولا مقدمة من وصولهم ، ففزع الناس أولاً لدخولهم بغير مقدمة ولا إذن، ثم علموا من صحيح صياحهم أنها بشرى بالفتح ، فقام التكبير والتهليل ، وضربت الطبول واتصل السرور ، وأمر الأمير في الحين بادخال من حضر من الطلبة والناس لسماع الكتاب الواصل بالبشرى والفتح وقراءةُ الفقيه أبو محمد المالقي على جميع من حضر ، ثم بعد قرىء في الجامع على جميع الكافة من الناس . وهذه نسخته الى حضرة الأمير بمراكش والى أهل إشبيلية من إنشاء الكاتب أبي الحسن عبد الملك بن عياش :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله وسلم

من عُمَر وعُثمان ابني أمير المؤمنين الى الطَّلبة والأشياخ والأعيان والكافة بإشبيلية أدام الله كرامتهم بتقواه ،

سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، أمّا بعد فالحمد لله القاهر الغالب، ناصر جُنْده، ومنجزُ وعْده، في المشارق والمغارب، والصلاة على محمّد المُنْبَعث وسيطاً في ذُؤابة لؤي بن غالب، وعلى آله وأصْحابه والماشين عَلَى سنّه وسنّته على

= أخبار المهدي ص 232 Laouste, mots et choses Berberses P 1 محمد المنوني ـ العلوم على عهد الموحدين ص 138.

(1) يقصد العدو نسبة لبلاد العدوة : المغرب، ومن المعلوم أن الغالب المغربية كانت مأسدة . راجع التعليق 1 ص 203

(2) هكذا تجمع العلم أو (العلّام) في لغة المغاربة : علامات

Colin : Notes de dialectalogie arabe Hesp T X 1930 page 106

أوضَح المسلكِ الواجب، والرّضا عن الإمام المَعْصُوم، المَهْدِي المَعْلُوم، النّاهض بأمْر الله تَعالى قياماً بالواجب، للحادِّ المحادِّ والمجانِب، والدُّعا لمولانا وسيّدنا أمير المؤمنين حامل لوائه [129] والمِلّةِ على مِنْهاج الحق، النّاسخ لمفترقاتِ المَذاهِب، مُمْشي الدّعوة الإمامية، والكلمةِ الموحدية، في شُعَاع نوره المحلّي للغَيَاهِب، ثُم لِفرعِه الأَنْمَى، ونَجْله الأزكى، الأمير الأجل، الملك الأسعَد الأعْدل، أبو يعقوب ذُو الحَسَب المحلّ بالمَناقِب، المُسامي للنُّجوم الثّواقِب، المُخْتار مذخوراً لأمر الله تعالى المحصُوص بغَرائب الرُّغائب، فكتَبْناه - أكرمكم الله بتقواه، وأوزعنا وإياكم شُكْر نُعماه - من مَضْرب محلّات المُوحّدين - أنْجَدهم الله - بظاهِرِ مرْسِية يسَّرها الله، وصُنْع الله الجميل، وفتحه الجَزيل، قَدْ وضح نهاراً، وفهق أنهاراً، وعلَتْ كلمتُه العُليا جِهَاراً، وبركةُ الإمام المَهْدِي، وسَعَادةُ سيِّدنا، ويُمْن الأمير الأجَل - أيدهم الله قدْ بوّءت طائفة الحَقّ نصراً وإظْهاراً، واعتضاداً في ذَات الله واسْتظهاراً. والحمد لله رَبِّ العَالمين. وقد خاطَبْناكُم قبلُ بمَا كانَ من صُنع الله تعالى في فتح أَنْدُوجر وتوحيد الحُصون التي تليها عمّرها الله، وتجدّد بعد ذلك لكم من صُنع الله وحده من مطّرد الفتح الموعود، المحفوف بالمناجح والشُّهود، ما جَلّ عن نعتِ الناعت، وشذَّ عن الشاذ الفايت، وكبُر عن وصفِ الواصف، ونثر النائر، ورصف الراصف، وأظهر من آيات الله تعالى ما فاق بيان ذوي المعارف، من صنعٍ لم يُرَ مثلُه في كثيرٍ من الحِقَب، ويومٍ كيوم ذي[1] قار انتصف فيه الموحدون والعرب من العجم، ولمن [130] سارَ لهم في الرَّي والكلم، وتمسك منهم بسبب

(فتْحُ الفُتوح تعالى أن يُحيطَ به نظْمٌ من الشِّعْر أو نثرٌ من الخُطب)[2]

(1) ذوقار: ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط، وفيه كانت الوقعة المشهورة بين بكر بن وائل والفرس. معجم البلدان - لسان العرب.

(2) البيت من قصيدة لأبي تمام يذكر فيها فتح عمُّورية وهي ذات المطلع المشهور
السيفُ أصدق أنباءً من الكتب في حدّه الفصل بين الجدّ واللعب
ويقول بعد البيت المورد هنا
فتحٌ تفتَّحُ أبوابُ السماء له وتبرز الأرضُ في أثوابها القشب =

وذلك أن عساكر الموحدين استقبلت هذه البلاد الشرقية فتحها الله تتوغَّل في أرجائها ، وتحُول بحول الله بينها وبين رجائها ، فكلما مرَّ الموحدون بمدينة من مدائنه ، أو حصن من حصونه ، انحجَر الأشقياء الذين يضبطونها فيها انحجار الثَّعالب ، وانزواء المغلوب بعزة الغالب ، وأحال أولياء الله على الأرزاق الموجودة في نواحيها ، يتسمون رغدها ، ويُلحقون يومها غدها ، حتى كثُرت نِعمُ الله بالمحلات المؤيّدة من الأطعمة والأعناب وضروب الفواكه من الرُّطْبة واليابسة وفي كل ذلك لا تعرض لبلدة بقتال ، احتقاراً لها ولمن بها ! وتصميماً لغزو غيرها ! ولأنها الناظم لنثرها ، الى أن وصلت العساكر جهات بَسْطة[1] ، فنزلوا منزلاً يُصاقبها يسمّى وادي القشتالي[2] واقتضى النظر إقامة بعض الأيام هناك لانتظار العسكر والحشد والرُّماة الواصلين من أغرناطة . وفي خلال مقام تلك الأيام بُعِثت خيلٌ مباركة من الموحدين والعرب لشنّ الغارة في المَيْمنة والمَيْسرة من تلك الأقطار والجهات ، فاستاقوا من الغنائم من جهة غلّيرة[3] وقرباقة[4] ، وبسطة وجبال

= وقد سبق للكاتب ابن عطية أن استشهد بهذا البيت في رسالة موحدية بمناسبة انتصار الشيخ أبي حفص الهنتاتي على ابن هود الماسي في وادي ماسة سنة 542 في ذي الحجة. الاستقصا جزء ثان ص 99 - 100.

(1) بسطة (Baza) مدينة تقع في الشمال الشرقي من غرناطة بالقرب من مدينة وادي آش حسنة الموضع.
الحميرى: الروض المعطار ص 44 - 45. محمد الفاسي: الاعلام الجغرافية الاندلسية ص 24.

(2) وادي القشتالي (Rio de Castalla - Casala) ولم نستطع تحديده بأكثر من أنه مكان يقرب من بسطة، والحروف في المخطوطة لا تحمل أية نقطة.
Huici Historia Politica, page 226

(3) غلّيرة (Galera)، تقع شمال مدينة بسطة جنوب قرباقة غربي (بلش) (Velez) Huici page 226 - 228.

(4) قرباقة (Caravaca) تقع شمال لُورقة وجنوب شقورة، يقول الحميري أن بها عيناً تولد الحصى وعين أخرى تفتته
الروض المعطار 150

شقُورة[1] عدداً حمّاً وسوائم كثيرة من الدواب والبقر وعشرات الالاف من الغنم . [131] فملأت الوادي ، واشتملت على كريمتها الأبادي ، وتقلّب الموحدون في نِعَم لا نحصى عدة تتناسق منها بِعم فبعم ، والشكر لله على ما أولاه . ولما وصل العسكر المنتظر من غرناطة أخذنا في الحركة الى أن انتهينا الى حصن قلية[2] ، فساعة الإطلال عليه نزل أهله من ذروته تائبين آيبن ، موحدين مستجدين ، نظراً لأنفسهم ، وأخذاً لحظهم ، ثم حللنا بجهة بلش[3] عمّرها الله من سَفع كثير القرى والعمائر ، ونظر معدوم النظائر ، وفي حصون وقلاع سمتْ مانيها بالبقاع ، وتناسقت الأعيان في الارتفاع ، فعندما هاينوا من أمر الله وجنوده ما صرّ عيونهم وملأ قلوبهم نزل قائدهم الشرقي[4] وأصحابه الرعبة مستأمنين مذعنين ، فأمنوا تأميناً ، وأضحوا نذراً لعشائرهم يساراً ويميناً ، وقدم في حصونهم من تقدّم لضبطها ، وتشمّر بحول الله في حوطها ومسالك استوضح أن الشقي ابن مردنيش وأصحابه النّصارى دمّرهم الله قد خرج بحملته الذميمة من مرسية الى لورقة حائفاً عليها ، بعد أن استوثق خروج أهل مرسية وشيوخها ، وأهل التعيُّن فيها مع كثير من لفيفها ، لمّا أوقع الله في قلبه من الرُّعب الذي تقدّم اليه جيشه ، حتى حفّ به طيشه ، فلم يزد أولياء الله إلا عزماً مجدّاً في التصميم الى جهته ، والتعويل على غزوه في عُقره [132] إدلالاً له ولفيئته ، وأقاربه وحوزته ، الى أنْ قارَب الموحدون جانب لورقة ، وأمّوا البسيط السهل المعروف بالفندون على مرأى من الأشقياء

(1) شقورة (Segura) تقع شمال قرساقة، ومنها أبو بكر بن عمر شاعر دولة بني عبد المؤمن ابن الخطيب أعمال الاعلام ص 145 . 228 - 226 Huici page

(2) قلية (Cullar) ويرسمه ابن سعيد هكذا قولية يقع في الشمال الشرقي من مدينة بسطة المعجب ص 370 المغرب لابن سعيد ج 2 ص 87 . 228 - 226 Huici P

(3) بلش (Velez - Rubio) ولا يلتبس هذا بـ (Velez Malaga) فإن المقصود ليس هذا، وقد ضبط لدى ابن سعيد بكسر اللام وتنقيط الشين: (كتاب الترييش في حلى مدينة بليش). الادريسي ص 186 ـ المعجب ص 670 ـ التكملة (كوديرا) ص 23 Huici page 226

(4) لم يعط اسماً صريحاً لهذا القائد الذي استسلم أمام الموحدين، أما الشرقي فلا نعتقده إلا وصفاً وليس اسماً لأن هذه الناحية تقع فعلاً شرقي موسطة والأندلس.

والكفرة ، واظهار آيات أمر الله العزيز وأعداء الله لا ينبس لهم ناس ، ولا يظهر منهم راحل ولا فارس ، وفي كل ذلك تخونهم آمالهم الخائنة ، وظنونهم الكاذبة ، أن الطريق تباكب عنهم تيامُناً الى الساحل[1] ، وتعريجاً بالمراحل والرّواحل ، الى أن استوضحوا أن القصد مرسيتهم مرمى الوفود والورود ، فسُقِط في أيديهم حيْرة وتباراً ، ثم أبْدوا قرب بلدهم تجلُّداً ، فأقلع الحاسر عن لورقة آخر النهار ، إقلاع الصُّغار ، آجذاً بحزن الحل ، والموحّدون سهل السباط[2] . فساير الموحّدين مرحلتين ملاحظاً ما نفع فؤاده ، وحقّر أعداده وأجاده ، وفي كل يوم من مسايرته تنتشر مواكب الموحدين على ترتيبهم وتأهبهم رجاء أن بعره العجب ، والأشر المعطب ، فينحز فيه وعد الله المرتقب . فلما كان يوم السابع من ذي الحجة في حين الزوال استحار الله الموحدون على أن يأخذوا بينه وبين الثنايا التي تحول بينه وبين مرسية ، فتميّزوا شعوباً وقبائل ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه من اخلاص التوبة وأمحاض النيّة ، فرأى الأعداء ما هالهم وأهلهم وأحال حالهم ، هذا على احتداد شوكتهم ، وكثرة عدتهم ، وتردّدوا [133] بسفح الجبل[3] زهاء ثمانية آلاف فارس أكثرهم أرغون[4] ، وقفوا يتشاورون ويتنازعون ، ولم يجدوا محيداً عن الطريق التي ضمتهم ، ولا منفذاً إلا في الساقات التي حفّت محيطة بهم

(1) لم يذكر أي ساحل يقصد ولعله يقصد ساحل وادي شقورة.

(2) لم يذكر اسم الجبل ولا كذلك اسم السباط، ونعتقد انهما معا يقعان في الشمال الشرقي من لورقة في اتجاه مدينة مرسية

(3) من هنا تبتدىء الورقتان الباقيتان من الكراسة السابعة التي تقدمت منها ست أوراق عن محلها وهكذا سترجع المخطوط صوابه، وتحمل الورقة هنا رقم 67 كما هو الواقع راجع تعليق رقم 4 ص 185 والتعليق رقم 2 ص 195 والمقدمة حول الخطأ الذي وقع فيه الذين جلدوا المخطوط.

(4) ارغون (Aragon) يعرفها الحميري ـ ومثله عند المقري ـ بانها بلاد غرسية بن صانشو - Garcia) (Sancho وانها تشتمل على بلاد وأعمال ومنازل، ولا شك أن في ضمن هذه البلاد مدينة برشلونة التي تقع في الناحية الشرقية من أرغون، ولهذا نرى وسي يترجم برشلونة في ابن صاحب الصلاة بأرغون وانظر خريطة بروفنصال في الروض المعطار فقد وضعها شمال سرقسطة وغربي برشلونة ابن صاحب الصلاة ص 79 ـ الروض المعطار ص 22 وص 55 عند الكلام على سولنة ـ وسي صفحة 208

وعمّتهم ، وضربوا قليل أخبية في الجبل الذي به أبادهم ، وهو فيما دبّروا مصادُهم ومعاذُهم ، وعوّلوا أن في مشارهم أن تكون ملجأ يأوي اليها الفل ، ويجدها منهم البعض إن لم يجدها الكلّ، فأتوها يعلوها القتام، ويبدو عليها الذُّل ، وصافهم جنود الله من ضحى النهار الى أن نُودي للصلاة من يوم الجمعة في أيام يقبل فيها التوب ، ويغفر فيها الذّنب ، ويخشع القلب ، ويعبد الرب ، فلما كان وقتُ الصلاة اختار الله للموحدين أن ناشبوهم القِتال ، وقد كثر الذكر والإهلال ، فزحفت العساكر اليهم حتى دَنا السَّواد من السواد ، وتشوَّفه بالكلم والطراد ، وحملت الرُّوم حملتهم المعلومة المعهودة ، وصمدت حملتهم إذ صمدت قبلُ رياح من الغرب فاقر خَوّالهم والتفّت عليهم قبائلُ الموحّدين واحتدمتْ الحرب وحَمِيَ الوطيس وثارت سماء النَّقع دون الجو كواكبُ الظُّبا والأسِنّة ، وثبّت الله أقدام الموحّدين ، وزلزل الله أقدام الملحدين ، وثبّت الساقة التي فيها الأعلام كأنها الجبالُ الراسيات والأعلام وانبرى الموحدون الأول من أهل تينملّل وهنتاتة فصبروا صبر أمثالهم ، [134] وخوّلهم الله اقبالاً في استقبالهم ، وأجفل الكَفَرَةُ منهزمين ، وولوا الأدبار مدْبرين ، والسَّيف يأخذُ منهم فوق ما يدع ، وحزْبُ الله يتقدم غالباً فيصرَع ويصدّع ، وقتل رجال الشقي[1] ومشاهيرُه ، والروم أكثر القتْلى فيهم فخرّوا كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية ، وعجّل الله بأرواحهم الى نارِه الحامية ، وسَقَطوا من مهواهم الى الهاوية ، ولاذَ الشقي القَليل ، في العددِ القليل ، إلى الأخبية التي أعدَّها للفرار ، لا للقَرار ، وقد خَيَّر من حدّ السيوف وأسنّتها ما أغناه عن الأخيار ، وشفَى الله صدورَ المؤمنين من أعدائهم الكفار ، وصاروا بين أيديهم جزراً ، قد افترشوا فناء في مقتلهم عدا وعقراً ، ونفّل الله من خيلهم ومطاياهم وأدراعهم وسائر أسلحتهم ما جلَّ قدرُه وعمّ كثره ، والحمد لله رب العالمين ، جاعِل العاقبة للمتّقين . وبعد ما تبعهم الحُسام الى الأصيل ، وصرعهم بكل مَسيل ، وقف الخاسر خائفاً يترقب وقوف الذليل ،

(1) يعني ابن مردنيش .

وسلب قتلاهم من ملابسهم بكل واد ومسيل ، بادر الموحدون في غدِهم على مَهلهم الى فناءِ مرْسية ، فضربت بساحتها المضارب والأبنية ، بإزاءِ حدائقها المعْرُوشة ، وسائطها وبَسَاتِينها المشيَّدة المفروشة فكان مِساقُ الموحدين إياه الى ناحيتِها من أشق ما أخزاه الله به . ونقرت الطُّبُول تصُكُّ [135] أسْمَاعَهم فمكنت الزلازِلُ في خَوَانِيه ، وركبَ الليْلُ حَمَلاً ، واحتلَّ البلد - ولم يكدْ - تسلُّلا ، وانبسط تبّاع الموحدين على تلك الحَدائق محصِّلين لأنواع الفَواكِه ، وعادَتْ بَانِي تلك البَساتين وأعواد الأشْجار والرياحين ، مُحْتطِباً ومتاعاً للمُقوين من الجنود، وصار سَعْدُ الأخبية سعْدَ السُّعود[1]! وأقام الموحدون للتّعْييد، وقد جَمَع الله لهُم الأعيادَ في عيد، والله تعالى يُوزِع شُكْرَ هَذا الفتح العَظِيم، ويقضي لناديه بأكرم عواقِب التّتميم، إنّه منعم كريم وأعلمناكم - وصل الله سراكم - بهذه البشارة العظمى التي هي نادرة المَسارّ النُّعمى لتأخُذُوا بما وفر حظّكم مِنْ شُكر الله عَلَيْها، وتتسوّغوا آلاء الله السابغة باجتلاء ما لدّيها، فهو فتحُ الأنْدَلس وإذلال عدوّها المتمرّد المتصحّب، مُسلّط الروم عَبَدة الأوثان والصُّلبان، على أهْلِ الإسلام والإيمان، والله يشْفَعَ ذلك بأمثاله، ولا يخلي من يَنْصُر الحق من عضده وإقباله، وقد بُهِتَ هَذا العدوُّ الخَائِن محْصُوراً، ودُهِش مذموماً مدْحُوراً، ونَظَر بعين الحَسْرة حَسيراً. وهَلَك بعَين الحَسْرةِ بالمَغْنَى المَحْسُوس إلاَّ يَسِيراً، عرَّفَ الله للموحدين بركة مقاصدِهم، وتولاّهُم بمعْهُود إظْهارهم في مصادرهم وموارِدِهم، بعزّته وقدْرته وطوله، لا ربُّ سِواه والسَّلام عليكم ورحمة الله [136] وبركاتُه. كُتبت في العشر الوَسط من ذي الحجة عام ستين وخمس مائة .

(1) وصار سعد الأخبية سعد السعود يعني أذن الله بتقليب الأحوال من غموض إلى وضوح ومن شؤم إلى يمن، فقد عرف عند المنجمين أن سعد السعود هو أحد السعود ولذلك أضيف إليها وهو كوكب نير، كما عرف أن كواكب سعد الأخبية ليست مُضيئة ولا منيرة وأنه سمي كذلك لأنه إذا طلع خرجت حشرات الأرض وهوامها من جحراتها وأخبيتها

وبعث السيِّد الأعلى مع هذه الرسالة مدرجاً فيها قصيدة شعر[1] أولها :

(وافر)

لَقَدْ بَلَغَتْ جِيادُكُم مَداهـا … ونالتْ ما أرادَتْ مِن عِداهـا
وها هي فاسْئَلوا الإصْباحَ عنها … بِحَمْدِ الله قد حَمِدَتْ سُراهـا
تَعُدُّ رِضاكُم عزّاً وجاهاً … فما تشكو على حالٍ وجاهـا
تَهيمُ بحُبِّ طاعَتِكُم فتطوي … بساطَ القَفرِ حتى قدْ طَواهـا
كأنّ قطا المفاوِزِ حين سارَتْ … تعَلَّمَتِ الهِدايةَ من قطاهـا
لقدْ شُنَّتْ بأرْضِ الشَّرْقِ حتى … أباحَتْ بعدَ مَنعتِها حِماهـا
أُتيح بها لتدْمير دَمارٌ … فدُكَّ على ترائبها رُباهـا
ولمّا لمْ تَلُذْ بالعَفوِ منكُم … تعاوَرَها الرَّدى حتى عفاهـا
ألا لله أيُّ مقام هَوْلٍ … تخِلُّ الرّاسياتُ له حُباهـا
إذا سمِع القنا عنهُ حديثاً … تثنى أعطافهُ طَرَباً وتاهـا
تراكمَت القساطلُ فيهِ حتى … جَلَت أنوار سَعْدِكُم دُجاهـا
درتْهُم فيه ريحُ النّصر طَحْناً … غداة أدارَتِ الهَيْجاءُ رَحاهـا
فقد نهِلتْ سيوفكُم وعَلَّت … فما تشكو الصَّدا أبداً ظُباهـا
فإن ينْجُ اللّعينُ لغير مَنْجى … لقد فغَرتْ شعوبُ عليه فاهـا
[137] تكتّم في غِمارٍ أو غُمارٍ … وعينُ الحرْبِ لم تطْحَر قَذاهـا
وولّى يقْطعُ البَطْحاءَ شرّاً … على شَوْهاءَ ما وبيتُ شواهـا
ولو فاتَتْ وَميضَ البرْقِ عدْواً … لخطّاها ولمْ يحْمَد خُطاهـا
وباتَ يُصارعُ الظّلماءَ وهْناً … ويحْسُدُ منْ كَواكبها سُهاهـا[2]
رَماهُم أمرُكُم ببني حُروبٍ … إذا انْتُدِبوا لَها خَسُّوا لظاهـا

(1) اقتصر ابن عذارى على ذكر بعض الأبيات من الرسالة الشعرية معتذراً عن الاتيان بنصوص الرسالة النثرية ص 51.

(2) السهى والسها: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى، ومنه المثل العربي: «أريها السهى وتريني القمر»!

صِغارُهُم لهُم همَمٌ كِبارٌ … أبَتْ أن تقْتني سوى قَناهـا
إذا صُوَرَ الحَمام بَدَتْ أفاضوا … مضرَّجةَ الدِّماء على دماهـا
فَسُورِكَ للخَليفَةِ في رِجالٍ … أطاعوا الله فيمَن قد عَصاهـا
فأرْضَوا ربَّهُم برِضا مليكٍ … يرى الدُّنيا بناظِرِ مَنْ قَلاهـا
ورُبَّ سريرةٍ لله فيه … تبَدّى في أسِرَّتِه سَناهـا
فما يَنْفَكُّ يخْبِطُ في ضَلالٍ … غَويٌّ لا يُريغُ إلى هُداهـا
هُو النُّورُ الذي بَهرت ولاحَتْ … (به)[1] شمسُ الهِدايةِ في ضُحاهـا
حَباهُ بهِ الخليفةُ عن إمامٍ … قد انتاشَ البريةَ مِن عَماهـا
أبا يَعْقوبَ إنَّ بِنا إليكُمْ … كما بالحائِماتِ يُرى صَداهـا
إلى نُطَفٍ حَلَتْها الرِّيحُ حتّى … غدَتْ زُرْقاً ترَقرقُ في حَصاهـا
فلو نفَحَتْ نَواسِمُكُم نضَحْنا … على حَرِّ الجوانِح مِنْ نَداهـا
حَدا بالعيس نحوكم اشْتياقٌ … أراها كيفَ تنفخُ في بُراهـا
فلولا أن يُلِمَّ خَيالُ … لمّا التذَّتْ بُعَيْدكُم كِراهـا
لوَتْ أعناقها طَرَباً إليكُم … فهَلْ يَشْفي التَّداني مِن صَداهـا
[138] سَيقضي حاجَها الرَّبُّ الذي لم … يدَعْ مِنْ حاجةٍ إلّا قضاهـا
ودونَكُم تحيَّةَ مُسْتهامٍ … يَطيبُ الجوُّ من مَسْرى شَذاهـا
ولا عدِمَتكُم العَلْيا فَمِنْهم … رعَاكُم ذو الجلال فقد رَعاهـا

وأمر الأميرُ الفقيهَ أبا محمد المالقي أن ينشد هذه القصيدة المدرجة في الكتاب الواصل بمحضر أشياخ الموحدين وشيوخ طلبة الحضر في مجلسه العالي فأنشدها ، فاستبشروا بها واستحسنوا أغراضها بالأخوة الموصولة ومقصدها ، وزادوا استبشاراً إلى البشرى بالكتاب ، ودعوا الى الله تعالى في تمادي النصر والعافية وتعجيل اللقاء بالإياب ، من الأخوة الأحباب ، وضربت الطبول فيها .

(1) هنا في أصل المخطوط شبه كشط ولعل مكانه «به».

(بقية أحداث سنة 560)

وفي هـذه السنة سنة ستين المؤرخة بعد مغيب السيد الأعلى في هـذه الغزوة توقف أهل جبل صنهاجة[1] ومن جوارهم عن أداء الطاعة فعسكر إليهم الشيخ المرحوم أبو حفص بعزم وفائه ، وصحة إخائه ، ومعه عسكر من الموحدين أنجدهم الله لقتالهم ونزالهم

وفيها أيضاً اختص الأمير الأجل الأعدل بوزارته أبا العلي ادريس بن جامع وقرّبه وأحبه ، وماشى معه الفقيه أبا محمد المالقي في المسائل، ولازم رضي الله عنه المذاكرة مع أبي الحسن بن الإشبيلي الخطيب في المحافل [139] عند ورود البشائر ، وكذلك مع أشياخ طلبة الحضر واندرج فيها متوفراً على تمهيد سلطانه وتألف خاصته من رجاله ، والانتهاض الى الاستيلاء على حاله ، وتفرّغ للتحنث في عبادة ربه ، إذ كان نسيج وحده في الزهد والورع ، فظهرت في هـذه المدة للناس في أحوالهم منه وبه دلائل اليُمْن ، واتصال العدل والفضل والأمن ، يسير المراكب حيث شاء من بلاد العدوة في طرقها من جبلها وسهلها آمناً في نفسه وماله لا يخاف إلا الله أو الذيب ! وأحسن لمن وفد اليه واستغاث به وبفضله من أجناد أهل الأندلس المضاعين المأسورين عند النصارى ، ففداهم بماله وسبل عليهم الخيل بسروجها ولجمها وآلات الحرب لها وجبرهم وكساهم ، وواساهم وحباهم ، وأوصل البركة للموحدين

(1) يقع جبل صنهاجة في شمال المغرب وجنوب مدينة سبتة، وهو - كجبل غمارة - يجاور مدينة نكور التي امتد منها الاسلام إلى أهل صنهاجة وغمارة. وصنهاجة قسمان: صنهاجة الظل وصنهاجة القبلة. الاستبصار - نشر وتعلول عبد الحميد ص 129 - 136 - 189 - 213 - أخبار المهدي بن تومرت ص 46

Léon L'Africain Description de l'Afrique 1956 page 12 - 14

Henri Terrasse

Histoire du Maroc Tome 1 page 22 - 23

196 - 197

211 - 260

والناس المقيمين معه بحضرته ، ولطلبة الحضر الوافدين في كل شهر على التوالي والاستمرار ، واستبان فضله وعدله نوراً من الأنوار ، وأخذ الزكاة من الماشية والحرث على حكم الكتاب والسنّة ، ووضعها في مواضع حقها ، وتيمّنت القلوب بدعائه ، وأصغت الأسماع الى ندائه . فحدثني أبو محمد سيد راي بن وزير أنه ذكر له في مجلسه الكريم توقف صنهاجة ومن جاورهم عن الطاعة ، وأنه قيل له ادعُ الله عليهم ! فتوقف ، ثم قال : « الله تعالى يهديهم ، ويصرفهم [140] عن تعذُّبهم » ، فما كان إلا قليل أيام ووصلت البشرى بهزيمة ابن مردنيش وظهور أمر الموحدين ، واتصل خبر البشرى بالفتح في الجبال ، ووجهوا في الحين بالتوبة راغبين ضارعين ، وكفى الله القتال للمؤمنين ، وانصرف الشيخ المرحوم أبو حفص وهم في طوعه وتبعه بأتمّ النجح ، وأتّصل الفتح بالفتح ، وأنشد الشعراء الحاضرون بالحضرة في وصول الفتح البعيد والقريب . وعيّد السيدان أبو حفص وأبو سعيد بالمحلة المؤيدة بظاهر مرسية عيد الأضحى على أسرِّ التعييد والظفر والنصر على غلبة عدوّهم ، ثم انعطفا آخذين في الانصراف ، الى الحضرة الإمامية على أتمّ السرور بالنصر والأخرة والائتلاف ، وتركا في البلاد المفتتحة من الموحدين والأمناء من ثقّفها ، وضبطها للأمر العزيز وشرّفها . ولمّا وصلا قرطبة أقام السيد أبو سعيد فيها برأيٍ من الأمر ورأيٍ متقدم واتفاق على حالته الأولى ، وانفصل السيد الأعلى عنه إلى إشبيلية منصرفاً الى الحضرة وهو يجرُّ الدُّنيا خلفه جرّاً ، ويقدمه النصر سراً وجهراً ، وقد سقى أعداءه دعاقاً مراً ، ورفع الله له في الأمر والتوحيد ذكراً ، وحاز البحر منصرفاً مستعجلاً ، حتى وصل قرية (مكول)[1] بعد انفصاله من[2] مدينة سلا فكتب الى الأمير أخيه متشوقاً

(1) قرية مكول: حصن كبير كانت بها سوق نافقة - على عهد الادريسي عما يجلب اليها وبها زرع كثير ومواشٍ وأنعام، وبالمقارنة نجد أن هـذه هي المرحلة الأولى في الطريق الساحلية إلى مراكش من مدينة سلا، وقرية مكول هذه التي تحمل اليوم اسم مكون (Mekoun) بين سيدي سليمان والمذاكرة حيث توجد بعض آثار قصبة قديمة Huici page 248 Com No 5

(2) يسوق ابن عذاري هذه المقاطع في إحداث سنة إحدى وستين وخمسمائة وهو يتفق مع تاريخ الوصول إلى مراكش - انظر صفحة 52 من ابن عذاري وص 141 من المن بالامامة

يشعر وهو من إنشاء [141] ابن حربون : (خفيف)

علِّلوا العِيسَ باقترابِ الدِّيارِ ... وانظروا هَلْ بَدا لَها من مَنار
وارْفَعُوا للمدَى بأيدي المَطايا ... لِمَّةَ الليلِ عن جَبين النَّهار
واستطيلوا على طِوال اللَّيالي ... واشكوهَا الى اللَّيالي القِصار !
لا تقولُوا من بَعْدِها بغَليل ... قَدْ دَنَوتُم من الحِبَاه الغِزَارِ
هذه كعبةُ العُلَى فاجِلُّوا ... واقرنوا بين حجَّةٍ واعْتِمار
هذه حضرةُ الإمام فحُطُّوا ... وأبيحُوا بِنُسْهَا بدَار قَرَار
في جَنابٍ تُمْسي السَّحاب وتُضْحِي ... سَاحِباتٍ عَلَيه فَضْلَ الإزَارَ
فيها أَسْفَرَ الصَّبَاحُ عَلَيْكُم ... ووُقِيتُم وعْثَاءَ هَذا السَّفَار
فاشْكُروا للركابِ أنْ جمعتكُم ... بالأمير الأجَلِّ فَرْع نِزَار[1]
بمليكٍ عنْد المليكِ مكينٍ ... قَدْ كَساهُ ثوبَ التُّقى والفَخَارِ
نَصَر الله دينَه مِنْ لَدُنْكُم ... بجُيُوشٍ خاسَتْ خلال الدِّيار
بجُيوشٍ تسمو الى كُلِّ ثارٍ ... في رِداءٍ من القَتَام المُثار
فكأنَّ الآفاقَ في لَمَم شُعْـ ... ـرٍ لَهَا من شَبا الرماح مَدَاري
أي بُرْدٍ من الثناءِ جَميلٍ ... أَلْبَسْتهم تلك السُّيوف الغَواري
قَدْ لقينا بيُمنكُم كلُّ خَيْرٍ ... غَيْرَ ما كان مِنْ نُزُوحِ المَزَار
فبَعثْنَا هَدِيَ القُلوبَ اليكُم ... وانطوَيْنَا عَلى الضُّلُوع الجِرار
فعَسى أن يُعَار يوم التَّلاقي ... وخُذُونا بردِّ تِلْك العَواري
إن يَوماً تلقاكُمُوهُ لأهْلٌ ... أن يُسمَّى حَبيبَةَ الأعْمَار
[142] بلغتنا مكول أنفاسُ سَيْرٍ ... أكلتْها القِفارُ بَعْدَ القِمار
فوجدنا من ريح يُوسفَ ما لم ... يتوقَّعْ عليه تغيُّبَ نار
فكان القِطار عنكُم تُحيي ... بنَسيم الرِّياضِ بَعْدَ القِطار
كَمْ كَتَمْنا الجوَى فلمَّا دَنَوْنا ... باحَ هذا النَّسيمُ بالأسْرار

(1) تقدم التحقيق في نسب عبد المؤمن . فراجع التعليق رقم 6 ص 157 ورقم 1 وص 176 وانظر الاستقصا أول ص 62

فإذا مَا ذُكِرتُمُ في مَكَان ... لَشَمَمْتُه مَبَاسِمُ الأزهَار
فسَلامٌ يَغارُ من طِيبِ رَيَّا ... هُ غُبُّ كل رَنْدٍ وعار[1]
يستقَرَّى الأنوار حتَّى يُحيِّي ... بشذاهُنَّ مَطْلِعَ الأنوار
عَلَّهَا تُبرد الحَشَى بِنَدَاهُ ... إن زَنْدَ الأوَارِ مِنْهُ لوار
وعَفا على العِبادِ فإنَّا ... قَدْ أخذْنا للبُعْدِ مِنْه بثَار !

وأعمل السير متشوقاً فكان وروده حضرة مراكش ضحوة يوم السبت الحادي عشر من ربيع الآخر الموافق للخامس عشر من يناير العجمي[2] من عام واحد وستين وخمس مائة .

(احتفال الامام أبي يعقوب في مراكش بمقدم أخيه السيد أبي حفص)

واحتفل الأمير الإمام أبو يعقوب رضي الله عنه بالبرور واللقاء إليه بنفسه بعد أن كتب كتائبه المنصورة الحاضرة معه بحضرة مراكش ، وكسا العبيد بالثياب المصنَّعة الألوان[3] ، وصفف الفرسان الكمَّل المدرعين من الموحدين وغيرهم والرجال بالدَّرق والرماح صفوفاً ، وجعل الرايات والعلامات خلف ركابه ، والطبالين مع خاصة أصحابه ، وهو راكب[4] [143] على جواده

(1) الرند : شجرة طيبة الرائحة مهدها الأصلي أوربا الجنوبية وآسيا العربية، وجعل منها الأقدمون رمزاً للنصر، أما الغار فهو كذلك شجر طيب الرائحة، ورقه دائم الخضرة كانوا قديماً يضفرون من أوراقه أكاليل للمنتصرين

(2) الموافقة هنا صحيحة : 15 يناير 1166

(3) نرى أن ابن صاحب الصلاة أحياناً يستأثر دون سائر المؤرخين بالتعرض لبعض الأشياء ، وهو هنا يتحدث عن أزياء بعض فرق الجيش وانها كانت مصنعة الألوان، وإن سكت عن إعطاء التفصيلات عن هذه الألوان . وقد قرأها بعض الباحثين «مصفة» كما قرأها آخرون «مصنعة» Melchor : campanas de los Almohades en Espana P 6

(4) وصف دقيق للموكب الخليفي ، العبيد بثيابهم الملونة، والصفوف من الفرسان والرجالة وقد حملوا الرماح والدرق والرايات من خلف الامام والموسيقى مع خاصة أصحابه، ووزيره لصق ركابه يمشي على قدميه بيها يحمل أمير المؤمنين على كتفه رمحاً طويلاً قد غشي سنانه

العتيق ، ووزيره أبو العلا إدريس بن جامع راجلاً لصق ركابه ماشياً يحدثه ، ويأمر الأمير بالأوامر فينفذ إدريس المذكور فيها ثم يرجع اليه ، وعلى عاتق الأمير رمحٌ طويل قد غشى سنانه . فلما خرج عن الغشاء الذي كان يستره ، والتقى بأخيه السيد الأعلى المنصور المذكور في السراح الذي كان في ذلك التاريخ متسعاً في باب الشريعة[1] المتصل بالشريعة القديمة وهو اليوم مدينة ثانية[2] متصلة بمراكش القديمة ، ووقف العسكر مع السيد القادم أبي حفص

(1) باب الشريعة:
تعتبر باب الشريعة أحد أبواب مراكش التي عرفت منذ التاريخ المبكر، وكانت تنفذ إلى مصلى العدس، وقد هدم معظمها عندما تقرر بناء ضريح الامام السهيلي، وكادت تختفي لولا جهود الذين تتبعوا آثارها بالبحث، ومعلوم أن موضع الشريعة في تعابير الفقهاء المسلمين يعني المصلى، أي مكان إقامة صلاة العيدين، التي تكون عادة ظاهر المدينة، وقد شوش هذا الاسم (الشريعة) على المستشرق الكبير دوزي فغدا يفترض بعض الفروض وورد في تعبير لصاحب الاستبصار: «وفي كل عدوة من فاس شريعة لخطبة العيدين»
المن بالامامة صفحة 291 - الاستبصار صفحة 181.
مخطوط ابن عذاري صفحة 120 - ابن القاضي: جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس صفحة 27 سنة 1309 هـ
Dozy, Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen âge, Tome Premier page 383 - 384.
Provençale: Notes de toponomestique P. 223. le Tourneau: Fisavant le protoctorat P. 110.
المنوني نقلاً عن ابن سعيد ص 251
Allain et Deverdun les portes Anciennes de Marrakech. Hesperis 1957 page 114 - 115 - 116. Caston Deverdun. Marrakech des Origines à 1912. Tomme 1 page 123.
(2) يدأب الولاة الجدد على طمس آثار الذين يسقطونهم، ولم يشذ الموحدون عن القاعدة، ولذلك تراهم يعرضون عن مباني المرابطين عدا فيها المساجد، ونراهم يطمسون معالمهم في كل مكان، وها هم هنا يحدثون مراكش جديدة.
الادريسي ص 68 - 69. كتاب الاستبصار في عجائب الامصار: نشر سعد زغلول عبد الحميد طبعة جامعة الاسكندرية 1958 ص 209 - 210؛ البيذق ص 105 - 120؛ محمد المنوني: الفنون على عهد الموحدين ص 249 - 250 نقلاً عن مسالك الابصار لابن فضل العمري، المعجب ص 360؛ الحلل الموشية ص 113 - 119؛ التازي - الحروف المنقوشة بالقرويين في خدمة الآثار. المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية طبعة القاهرة 1961 ص 447

بإزاء الشريعة ، ووقف عسكرٌ الإمام معه في أول السراح المذكور ، وتجاولت الخيل من فرسان العساكر بالجري واللعب والدفاع بالحملات والكرات والطبول تضرب من ضحوة النهار إلى آذان الظهر من اليوم المذكور ، حتى حمل الأمير بنفسه[1] في تلك الدفعات سروراً فأظهر من ركوبه وفروسيته أمراً عجباً . ثم نزل الأمير عن فرسه ، ونزل السيد الواصل أيضاً والتقيا وتصافحا وسلما ، ثم سلم الناس الواصلون بعضهم على الأمير ، وعلى من حضر ، وركبوا وعادوا الى العساكر ودخلوا الى القصر العتيق : دار الحجر[2] في أعظم بروز وأحفل تمييز بعد صلاة العصر في أول العشية من اليوم ، واجتمعا خير اجتماع . وكان من البروز الحافل ما أبهت الناظرين لغاية الإجماع . وفي اليوم الثاني من هذا الوصول [144] السَّعيد ، صُنع للموحدين الواصلين والعرب ولجميع المقيمين من جميع الأصناف الأطعمة الدارة ، والأشربة الحلال المدارة على المسار السارة ، مدة خمسة عشر يوماً في نعيم وسرور مقيم ، ثم أنعم عليهم بالكسوة التامة من العمائم والغفاير[3] والبرانس والأكسية بأن حصل لكل فارس غفارة ، وعمامة وكسا ، وقبطية[4] وشقة . وأنعم على جميع الناس العارين والقاطنين بذلك ، وعلى طلبة الحضر ، وأدرت عليهم البركة الحافلة من الذهب والدراهم . لكل فارس عشرون ديناراً[5] ، ولأعيان

(1) ترى أن ابن صاحب الصلاة يسترسل في ذكر طرائفه، فهو يصف هنا «حملات الخيل» التي ما تزال تجري في المغرب إلى الآن وخاصة عند الأفراح والمواسم. والطريف هنا أن نرى الخليفة نفسه يندمج في شعبه فيأخذ بعنان فرسه ليقوم هو كذلك بدور الحملة «المصطنعة»
(2) حول دار الحجر راجع التعليق رقم 1 ص 169
Dozy Sup T. II p. 218.
(3) جمع غفارة: كساء يلبس فوق آخر، لسان العرب.
(4) ترى كيف جعل الاكسية التامة تتألف من العمائم والغفائر والبرانس والاكسية، ثم أعطى مفردات لجل هذه الكلمات عمامة، غفارة، كساء، وأصناف القبطية التي هي الثوب الأبيض الرقيق من الكتان، والشقة التي هي عبارة عما شق من الثياب على شكل مستطيل.
(5) نقصد في أغلب الظن الدينار اليعقوبي المنسوب إلى أبي يعقوب وبالرغم من أنه من الصعب اعطاء معادلة مضبوطة لمقدار الدينار، فإنه من المفيد - اعتماداً على ما كتبه الأستاذ ماسينيون - أن نعلم أن وزن الدينار الموحدي بالذهب 4.729 (غرام) (أعني بزيادة 704 على الدينار الشرعي)، وإن

الموحدين وأشياخهم لكل واحد ماية دينار ، ولأشياخ العرب لكل واحد ماية دينار ، ولساير عسكر العرب عشرون ديناراً لكل فارس ، فاجتمع لجميع الناس السُّرور ، والمال الحاضر الموفور ، وعادت الطبول بالنُّفر فيها مدة خمسة عشر يوماً . وبعد هذا الإنعام التام ، والإفضال العام ، رجع الناس الغازون الى قبائلهم للاستقرار ، بعد نيل الغزو السعيد ، والأجر المزيد ، في هذه الأسفار .

وخمدتْ نار الفتنة من ابن مردنيش مدة خمسة أعوام الى أن حدث بينه وبين صهره ابن همشك الشنآن الذي أذكره بعد أن شاء الله تعالى ، فنظر أمير المؤمنين في غزوه على ما يأتي ذكره(1) في هذا التَّاريخ مفسراً من تجهيز البعوث والعساكر الى جزيرة الأندلس [145] استعداداً لغزوه إلى أن غزى وحصر بمرسية قاعدته في عام ستة وستين وخمس مائة .

الابتداء بالولايات من الأمير لأخوته السادات . وللحفاظ النبهاء من أبناء شيوخ الجماعات على ما يذكر

قال المؤلف : ولما كمل شغل الأطعام والأنعام ، ميَّز الناس على جميع طبقاتهم ، على ما حضروا به من كساهم وهيئاتهم وخيلهم ورحلهم ، فكتبت

= قيمته بالفرنك الفرنسي كانت أوائل القرن العشرين 14,50، وهكذا تكون قيمة المبلغ المأخوذ مائتين وتسعين فرنكاً يعني فرنك أوائل القرن العشرين . ويقدر القدماء وزن الدينار بأربعة وعشرين قيراطاً، ويذكرون أن القيراط ثلاث حبات فيكون المجموع 72 حبة . الاستقصا ثان:

Luis Massignon: Le Maroc dans les premiers années du XVI siècle 1906 page 102 - 103

Miles: ENCYCLOPEDIE de l'Islam T. II. Livraison 27 p. 305 Edition 1962

Bréthes: Contrubution a l'histoire du Maroc 1939.

محمد الصبيحي : اصلاح الفجر، عن المسائل العشر، طبعة الرباط، 1940 ص 9 - 18

محمد الزغاري : معرض نقود اسلامية وقديمة 1962 ص 16.

التازي : تاريخ جامع القرويين طبع دار الكتاب اللبناني: سنة 1972 الجزء 1 ص 76.

(1) يعني صفحة 260 - 264 - 268 - 270.

أسماؤهم على الاستيفاء ، وتكرار الأسماء ، والسمح لهم في تحيُّلهم للأقوياء منهم والضعفاء ، وخرجتْ لهم البركة على الذي كتبوه ورتَّبوه نظر الأمير أولاً بمشاورة أخيه السيد الأعلى أبي حفص في حديث بجاية وأقطارها إذ كانت دون والٍ ، وعلى حالة إغفال ، محتاجة للنظر لها بسيد يفتح لهم زهرة الأمال ، فاختاروا لها من الإخوة السيد أبا زكريا يحيى بن أميرالمؤمنين الخليفة رضي الله عنه ، فتوجَّه اليها من الحضرة غرة جمادى الأولى من عام واحد وستين وخمس مائة في جملة متعينة من أبناء الجماعة والحفاظ ، والموحدين أهل الديانة والاحتفاظ ، ومن عسكر أهل بجاية وأقطارها على ما رأوه ، واستخاروا الله عليه ونوره .

(الاحتفال بتنصيب أبي عبد الله بن أبي إبراهيم والياً على إشبيلية)

ثم نظروا [146] أيضاً في حديث إشبيلية إذ كانت أيضاً دون والٍ ينظر في عسكرها ، وأجنادها وثغرها ، فاختاروا لها من أبناء الجماعة النبهاء الفضلاء الفرسان الأنجاد من أهل الأديان الشيخ الحافظ أبي عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم صاحب المهدي رضي الله عنه ، واتفقوا على ولايته عليها ، وأحضروه وأمروه بذلك ، وقدَّموه عليها يوم الجمعة بعد صلاة الظهر الحادي والعشرين من جمادى الأول بموافقة الخامس عشر من أبريل العجمي(1) من سنة إحدى وستين وخمس مائة المؤرخة . وعقد له الأمير رايتين في مجلسه الكريم وميَّزوا له حملة وافرة متعينة من الحفاظ من أبناء أهل خمسين من الموحدين أعزهم الله من كل قبيلة من الموحدين ، وعين أن يزر له ، ويسوس أحواله ومسائله ، الشيخ الحافظ أبا يحيى زكريا بن يحيى بن سنان لثبات أبيه في أهل خمسين ، ولحفظه هو كتاب الموطا وعرضه عليه في مجلس(2) الخليفة أمير المؤمنين ، وظهور النجابة عليه من شبابه الى فتوته وما

(1) الموافق هو 25 مارس 1166.

(2) كان اهتمام الموحدين بأمر التعليم عظيماً، وكثيراً ما كان الخلفاء يشرفون بأنفسهم على مباشرته والحض عليه . المنوني، ص 27 - 28